التفسير العلمي للقرآن الكريم

وموقف العلماء منه

إعداد/أ. د. طه عابدين طه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

سبق الكلام عن تعريف التفسير العلمي ، وبيان الفرق بينه وبين الإعجاز العلمي بما يغني عن إعادته .

المطلب الأول : نشأة التفسير العلمي وتطوره وأهم المؤلفات فيه :

أولاً : نشأة التفسير العلمي وتطوره :

قد ظهرت الحاجة إلى التفسير العلمي في وقت مبكر في تاريخ الأمة ، وبصورة أدق بعد ما حصل من ترجمة لعلوم الأمم في عهد الدولة العباسية في عهد المنصور عام ١٤٥هـ مما جعل العلماء ينظرون لتلك العلوم في ضوء القرآن الكريم فهذا السبب الأول لقيام هذا اللون من التفسير ، خاصة والقرآن الكريم وجّه العقل البشرى للنظر والانتفاع من حقائق الوجود المسخر له ، وهو في نفس الوقت ينقله من خلال التدبر في ملكوته لمعرفة عظمة المبدع الخالق .

بعد ذلك ظهرت عناية العلماء به ، والكتابة فيه في كتابات متنوعة أنتجت تفسيراً علمياً وضعت له فيما بعد أصول وضوابط، ومن أوائل الذين كتبوا في ذلك: الإمام الغزالي ، والراغب الأصفهاني ، والرازي ، والزركشي ، والسيوطي وغيرهم .

وقد زادت الحاجة إليه في العصر الحديث بعد أن استحكمت النهضة الأوربية والغربية في الحياة، وقطعت شوطاً في البحث والاكتشافات العلمية في الكون والحياة والتي تبعتها تطورات مذهلة في الصناعة والتقنية بصورة غيرت واقع الحياة ومسيرتها ، مما جعل بعض العلماء يقف من تلك الاكتشافات موقف الرافض ومنهم من وقف منها موقف المندهش المستسلم ، ومنهم من وقف موقف المحايد المتجرد الذي ينظر إليها من خلال هدايات الوحي ومحاول إظهار التوافق بين ما في الوحي ، وما هو مثبت في الواقع من

تلك النظريات ، كما جاء عن فَاطِمَةَ بِنْتَ قَيْسٍ قالت : فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلاَتَهُ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَهُوَ يَضْحَكُ فَقَالَ « لِيَلْزَمْ كُلُّ إِنْسَانٍ مُصَلاَّهُ ». ثُمَّ قَالَ « أَتَدْرُونَ لِمَ جَمَعْتُكُمْ »؟ قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « إِنِّي وَاللَّهِ مَا جَمَعْتُكُمْ لِرَغْبَةٍ وَلاَ لِرَهْبَةٍ وَلَكِنْ جَمَعْتُكُمْ لأَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ كَانَ رَجُلاً نَصْرَانِيًّا فَجَاءَ فَبَايَعَ وَأَسْلَمَ وحدثني حَدِيثًا وَافَقَ الذي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ مَسِيحِ الدَّجَّالِ) رواه مسلم . فانظر كيف سرور النبي ﷺ وهو يجد التوافق بين الوحي وما جاء به تميم الداري .

ثانياً : أهم المؤلفات في التفسير العلمي :

١. جواهر القرآن ودرره للغزالي .

٢. مفاتيح الغيب للرازي .

٣. ري الظمآن ، محمد بن عبد الله المرسي .

٤. الإتقان ، جلال الدين السيوطي .

٥. التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن ، حنفي أحمد .

٦. كشف الأسرار النورانية القرآنية ، محمد بن أحمد الإسكندراني .

٧. القرآن ينبوع العلوم والمعارف ، علي فكري .

٨. التفسير العلمي للقرآن في الميزان ، رسالة دكتوراه ، أحمد عمر أبو حجر .

٩. التفسير العلمي المعاصر وأثره في كشف الإعجاز العلمي للقرآن الكريم ، الأستاذ الدكتور سليمان بن صالح القرعاوي .

المطلب الثاني : موقف العلماء من التفسير العلمي :

انقسم موقف العلماء من التفسير العلمي إلى قسمين:

القسم الأول : المؤيدين للتفسير العلمي : يرون أن القرآن حوى كل علم ، وخاصة ما يتعلق بالكون ، وهو من أوجه إعجازه ، وفي ذلك إظهار لعظمة القرآن ،

وهو من الجوانب الإعجازية المهمة التي تتناسب مع عصرنا .

القسم الثاني : المعارضين للتفسير العلمي : يرون أن القرآن كتاب هداية وليس كتاب علوم ونظريات ، وأن اتجاه التفسير العلمي يؤدي إلى تحميل النصوص ما لا تحتمل ، وهو مدعاة للزلل لأن النظريات قابلة للتعديل بل الإبطال ،وينبغي الاستفادة من تلك النظريات دون إقحامها على القرآن أو اعتبار أن القرآن مطالب بموافقتها .

ج/ القول المختار في التفسير العلمي :

بعد النظر في وجهة نظر الفريقين يتضح أن المؤيدين يريدون أن يثبتوا للعالم أجمع أنه من عند الله وأن منزله هو خالق الكون العليم الخبير بخباياه وأسراره .

والمعارضين معارضين له لأن النظريات العلمية عرضة للتبديل والتغيير فلا يربط تفسير القرآن بعجلة المتغير، وكفى به شرفاً أنه حث على العلم والنظر الذي بهما التقدم العلمي في كل عصر ومصر .

والذي تطمئن إليه النفس أن فتح التفسير العلمي على مصراعيه مدعاة للزلل ، وقفل الباب حتى أمام حقائق العلم الثابت يمنع من الاستفادة من نور المعرفة في إبراز حقائق القرآن الكريم الذي حوى الكثير من الحقائق والأسرار ، ولذا كان القول بالتفسير العلمي بضوابطه هو الحق والصواب ، وهو المنهج الوسط ، فلا نتجاهل الحقائق العلمية في القرآن ، ولا نلتمس لكل مسألة علمية آية من كتاب الله زاعمين بذلك أنها توافق ما قال به العلم .

المطلب الثالث : ضوابط التفسير العلمي :

هنالك ضوابط استقر عليها رأي العلماء في قبول التفسير العلمي منها :

١ـ عدم مخالفة صحيح المأثور عن الرسولﷺ ، أو ما له حكم المرفوع ؛ لأن النبي ﷺ أقواله معصومة﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴾ (النجم :٣) وهو أعلم الناس بمراد الله في كلامه ،

ومهمته الأولى بيان القرآن الكريم : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٤٤) .

٢ ـ أن لا يتعارض التفسير العلمي مع أي دليل آخر ورد في الكتاب والسنة .

٣ـ موافقة اللغة العربية موافقة تامة بحيث يطابق المعنى المفسر المعنى اللغوي ؛ لأن القرآن الكريم لا بد أن يفهم وفق اللغة التي نزل عليها : ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (الزمر:٢٨) ، ولا ينبغي أن نحمل النصوص ما لا تحتمل .

٤ـ أن يوافق سياق الآية بحيث لا يكون التفسير نافراً عن السياق .

٥ـ أن تذكر هذه الحقائق وجهاً من وجوه التفسير يسعه مفهوم الآية ويوسع معناها ، ولا يتناقض مع ما ذكره السلف الصالح والعلماء في تفسيرها ؛ لأن نصوص القرآن تقبل تأويلات كثيرة متنوعة غير متعارضة .

٦ـ أن لا يفسر على نظريات علمية واهية، أو مازالت في فترة التخمين والدراسة فتخضع آيات القرآن لها ؛ بل لا بد أن يكون ذلك وفق الحقائق العلمية الثابتة ؛ وذلك لأن الحقائق العلمية الثابتة التي أثبتتها الدراسات العلمية المتطورة لا تتعارض بحال مع حقائق القرآن ؛ وإن عارضتها فلا ينبغي الالتفات إليها ، وسيظهر الزمان فسادها ؛ لأن ما جاء في النظريات من حقائق يمكن أن تتغير وتتبدل ؛ ولكن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

٧ـ أن تفسر تلك الحقائق من باب الإعجاز ، وزيادة الإيمان ، وبهدف إلى إدراك الأمة عظمة القرآن ، وأن الحقائق العلمية التي ذكرت في القرآن الكريم الأساس لذكرها خدمة قضية الإيمان والهداية ، وبهدف تحفيز المسلم إلى حسن الانتفاع بقوى الكون المسخرة له .

٨ـ أن لا يتعرض التفسير العلمي لأخبار وشؤون الغيبيات[(١)] .

فإذا روعيت هذه الضوابط فلن يكون هنالك حرج في تفسير آيات القرآن الكريم وفق الحقائق العلمية ، بما يظهر عظمة القرآن الكريم .

المطلب الرابع : صور من التفسير العلمي المقبول والمردود :

أولاً : صور من التفسير العلمي المقبول :

أ/ قال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (المائدة : ٣) . أظهر لنا العلم سر تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما ورد في الآية الكريمة .

ب/ قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ (النحل: ٦٦) فجاء العلم الحديث وأثبت لنا بأن الجهاز الهضمي يقوم بهضم الغذاء وامتصاص الجزء الصالح منه وهو الذي يتحول إلى الدم ويغذي الجسم بما يحتاج إليه عبر الأوردة والشرايين المنتشرة في جميع أنحاء الجسم وهو يغذي الغدد والتي منها الغدد اللبنية (ضرع الحيوان) المناط به إفراز اللبن ، فيتحول الدم إلى لبن ، ويتحول الجزء الباقي من الطعام إلى رفث وهو البراز غير الصالح ، فإنه تعالى بقدرته شطر هذا الطعام شطرين هما الدم والرفث وأخرج من بينهما اللبن خالصاً

---

(١) ينظر: اتقان البرهان في علوم القرآن (١/١٢٥-١٢٦) ، ودراسات في علوم القرآن د. فهد الرومي ، (ص:٢٨٩ - ٢٩٧) ، ومن أوجه إعجاز القرآن الكريم د. نبيل محمد آل إسماعيل (ص٤٥-٤٥) .

من كل شائبة تشوبه ، ناصع البياض (﴿ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ ، سائغاً للشاربين سهل المرور في حلوقهم حلو الطعم في أفواههم .

ج/ **قال تعالى:** ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾(القيامة: ٣ — ٤) من التفسير المقبول توضيح السر في تخصيص البنان بالذكر دون باقي الأعضاء ، فجاء العلم الحديث فبين لنا بأن أدق ما في البنية الإنسانة تسوية البنان ، ولهذا لا تجد بناناً لإنسان يشبه بناناً آخر في غيره .

د/ الإحساس في الجلد ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء:٥٦) . قال ابن الجوزي : " لأن الجلود آلة في ايصال العذاب إليهم كما كانت آلة في إيصال اللذة " [٢] . ثم جاء العلم الحديث ليكشف أن الجلد هو فقط الذي به مناطق الإحساس ، حيث نظروا بالمجهر فوجدوا أن أعصاب الإحساس بالحرارة والبرودة لا توجد إلا تحت الجلد فقط ، وقد جاءت الآية بما يوضح السبب في كون العذاب والتبديل إنما يقع على الجلد دون سائر الجسد .

ثانياً : صور من التفسير العلمي المردود :

هنالك من دفعهم الحماس إلى أن يلتمسوا لكل اكتشاف ونظرية آية أو آيات في كتاب الله زاعمين أن القرآن قد سبق إلى الإخبار عن هذا الكشف قبل أن يصل إليه البشر مما جعل عملهم يخرج من نطاق الموضوعية ويأخذ طابع التكلف المذموم ، مثال ذلك :

(٢) زاد المسير في علم التفسير ، لعبدالرحمن الجوزي (١١٣/٢) .

أولاً : قال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴾ (النمل: ٨٨) . فمرور الجبال هنا مراد به يوم القيامة لأن هذه الآية جاء ضمن آيات تتحدث عن النفخ في الصور ومحاسبة الناس ، وليست الآية في عالم الدنيا ، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴾ (التكوير: ١—٣) .

ثانياً : قال تعالى : ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ (الرحمن: ٣٣) . يستدلون بها على غزو الفضاء ومحاولة الوصول إلى الكواكب ، فيقولون السلطان هنا العلم والنفاذ مقصود به الوصول إلى الكواكب والخروج من أقطار الأرض ،حتى يثبتوا أن القرآن سبق العلم الحديث بالدعوة إلى غزو الفضاء ، متجاهلين أن هذه الآية تتحدث عن يوم القيامة ، وتبين قدرة الله على محاسبة كل من الجن والإنس مجازاة لا يستطيع أحد أن ينجو منها إلا بسلطان أي بقدرة عظيمة أو ملك قوي ، وليس ذلك لأحد إلا الله .

ثالثاً : ومنه قوله تعالى : ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ﴾ (الزلزلة: ١ — ٤) . يفسرونها باستخراج البترول والغاز وهو من أعظم ثقل في الأرض عند ما زلزلت أي حركت بالآلات وفتح فيها آبار البترول والغاز ، وقال الإنسان : ما لها متعجباً مما تخرجه من ذلك فعند ذلك تحضر الساعة " وهو تفسير سقيم أضعف من أن يرد عليه .